دراسات فى التصوف

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

العناية بالتصوف وأسبابها :

قد يدهش بعض معاصرينا من اهتمامنا بالتصوف آلى هذا الحد فى عصر الذرة والصواريخ الموجهة ، والاقمار الصناعية ، ولكننا نجيبهم قائلين : على رسلكم أيها المتعجبون المتعجلون ، فتلك دهشة خاطئة متسرعة ، لان لدينا عدة أسباب قوية مشروعة هى التى جعلتنا نلبى مغتبطين هذه الدعوة المخلصة الى العناية بذلك الجانب الروحى الجدى ..
وأول هذه الاسباب وأهمها وأجدرها بالرعاية هو تلك العواصف المادية ، وهاتيك الزوابع الالحادية التى هبت علينا فى الحقبة الراهنة من الغرب بصورة تكاد تجتاح عقول شبابنا وقلوبهم ، اذ يعلن أربابها فى غير خجل ولا حياء ، بل فى فجور ومجون ، أن العالم المحس هو وحده الموجود ، وأن ما لا يناله الحس بجوهره ففرض وجوده محال ، وان ما لا يكون موضوعا للعلم التجريبى فهو ضرب من الاخيلة والاحلام ، أو لون من الاساطير والاوهام ، وانهم غير مستعدين للايمان بالله والروح الا ذا وضعا على المشرحة ، وسلط عليهما الميكروسكوب ، وأنه يجب عليهم أن يزيلوا من طريقهم كل عقبة تحول بينهم وبين الاستمتاع برغباتهم المادية ، ولذائذهم الغريزية ، فان كانت هذه العقبة خلقا محوه ، وان كانت عرفا نحوه ، وان كانت دينا أزالوه ، أو الها نسفوه ..

ولا جرم أن الغربيين بهذا المسلك قد نجحوا الى حد كبير فى الانحراف بالروح العام عن الصراط السوى الفطرى ، واستطاعوا أن يهدموا اعتدال النفوس المكبوتة تحت ضغط ميولها الطبيعية ، وظفروا بأن يجعلوها فريسة للقلق الدائم المرهق الذى طالما تجاهلوا أسبابه ، والذى يدفع الارواح المؤمنة الى أن تستغيث بربها أن ينقذها من ذلك الاضطراب المضنى الذى أفقدها سكينتها وكاد يفقدها صفاءها ..

فهل ذلك وحده لا يكفى لان يدفعنا كما يدفع كل مثقف مخلص نحو الروحية التى عن طريقها وحدها سيكون انقاذ الانسانية مما تردت فى وهدته الى الحضيض بسبب اغراقها فى المادية الشائنة ..

أهمية التصوف الاجتماعية :

على أن هذا الالتجاء الى الحياة الروحية ، أو الى التصوف فى اثناء اشتداد المحن النفسية ، والازمات الخلقية قد دفع فريقا من السطحيين الى

القول بأن الحياة الصوفية هى فرار من هموم الحياة العامة ومصاعبها ورفض للمساهمة فى أعبائها ، وتخلص من مسئولياتها ومتاعبها ، وبالتالى هى صورة واضحة من صور الضعف والتخاذل .

ومما هو غنى عن البيان أن هذا الرأى خاطىء من أساسه ، لاننا اذا تمعنا مثلا فى صوفية المسلمين الفينا أن الدور الذى قاموا به فى اصلاح الحياتين : الخلقية والاجتماعية دور عملاقى لا تقوى كل عواصف الحياة مجتمعة على أن تمحوه ، أو أن تخفى معالمه ، بل ان هناك اجماعا من ذوى الآراء الشديدة فى الشرق والغرب يوشك أن يكون منعقدا على أن فضل المبادىء الصوفية الاسلامية فى انتشار الاسلام أعظم كثيرا من وسائل الفتح الظاهرية التى استعملها الخلفاء والقواد ، وفوق ذلك فان كل علم من أعلام الصوفية ، كان يتعمق فى فحص دخائل نفسه ، وينقب فى طوايا قلبه حتى يحيط بمكنونات ذاته من سعادة وألم ، ثم يتأمل فى الحياة حتى يتبين ما تكتظ به من خير وشر ، فاذا ألم بكل ذلك اتخذ منه الوسائل الناجعة فى ابراء القلوب من آلامها . وهو لم يكتف بقلوب الافراد ، بل هرع الى تضميد جروح المجتمع الذى يعيش فيه ، والذى مزقته آثام أعضائه الفاسدين ، فجعلته يئن أنينا موجعا وقفت أمامه جهود المصلحين الظاهريين عاجزة مكتوفة الايدى بحيث لو لم تبعث اليه الاقدار بهؤلاء الصوفيين المخلصين ، لقضت عليه تلك الشرور قضاءها .

ومن العجب العاجب ان هذه الاهمية الاجتماعية التى ظفر بها التصوف قد قدرت فى الغرب أكثر من تقديرها فى الشرق لا سيما عند من يطلقون على أنفسهم فى الشرق اسم الصفوة الممتازة ، لان الامة أو السواد الاعظم - مدفوعا بسلامة الفطرة - قد قدر ذلك حق قدره بعد أن لمس مجهود الصوفية الموفق فى انقاذه من وهدة الرذائل والآثام . أما ذلك الفريق الذى يدعى زيفا بالعلية أو الصفوة ، فانه قد اكتفى - من العلم الصحيح - بالقشور دون اللباب ، ورضى لنفسه هذه السطحية التافهة التى لا تغنى فتيلا ..

ومن أمثلة تقدير مشاهير المستشرقين لهذا الجانب الروحى من جوانب الوجود ما يجد عناية الاستاذ ماسينيون فى كتابه محاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف الاسلامى اذ يقول : « انما بفضل التصوف كان الاسلام دينا دوليا وعاما . انه دولى بفضل الاعمال التقية التى قام بها الصوفية فى زياراتهم لبلاد غير المؤمنين ، أى بفضل المثل الرائع الذى قدمه نساك المسلمين من شيوخ الطرق : الكبروية والشطرية ، والنقشبندية الذين كانوا يتعلمون لغات الهنود وسكان جزائر الهند الشرقية ، ويندمجون فى حياتهم ، هذا المثل هو الذى هدى أولئك القوم الى الاسلام أكثر مما فعل الغزاة . وانه عام ، لان الصوفية هم أول من

فهموا الاثر الخالد الفعال للدين الحنيفى ، وهو وجود توحيد عقلى طبيعى لجميع بنى الانسان » ..

ومن ذلك أيضا ما يحدثنا به المستشرق الهولندى « سنوك هورجرونج » فى كتابه : « سياسة هولندا اتجاه الاسلام » فيقول : « ان الاسلام بفضل تصوفه ، قد وجد وسيلة صعوده الى مكانة مرتفعة يستطيع منها أن يرى أبعد من آفاقه الخاصة .. أى أن هذا التصوف مشتمل على شىء من دولية الدين » .

وكذلك ما يسجله الاستاذ الفرنسى « شيير يسونسواى » فى مؤلفه الحديث القيم : « الاسلام والجزال » حيث يقول : ومما لا سبيل الى الشك فيه انه كان هناك فى العصور الوسيطة وئام روحى وتعاليم خفية بين الصفوة الاسلامية . أى شيوخ الصوفية ، والصفوة المسيحية واليهودية ، وأن الاسلام قد قام اثناء عدة قرون فى هذا الوئام بدور الملهم والمرشد .

ونحن نحسب أن فى هذا التصريح برفعة الاسلام ودوليته واشتماله على « التوحيد الطبيعى للبشرية » شهادة من جانب أولئك المستشرقين الاعلام تقطع قول كل خطيب كما أنها شهادة لهم أنفسهم بالنزاهة والبراءة من التعصب كفيلة باسكات المتحاملين .

التصوف بمعناه العام :

على أن القارىء قد يدهش عندما يعرض عليه المنهج الذى يسلكه المتنسكون للوصول الى الحقيقة العليا دون أن يعرف ما هو التنسك ، ولا متى نشأت هذه العبارة ، ولا من الذى استعملها للمرة الاولى ولا ما اذا كان معناها ثابتا كما هو منذ أن نطق بها أو تطور هبوطا أو صعودا قد يتساءل عن كل هذا ، بل لعله يعتبره أولى بسابقية الوجود مما تقدمه وأياما كان ، فاننا سنحاول أن نستجيب لدعوته النفسية التى قد تدور بخلده فنقول :

ان التصوف فى معناه العام هو صورة من صور التاليه النقى الذى تتمثل عقيدته فى نفوس معتنقيه بحالة شخصية عميقة لا يبرهن عليها بوساطة الذهن المعتمد على الحواس ، ولا عن طريق العقل البحت ، وهو ينبع من داخل النفس هادفا الى التحرر من ربقة الشهوات ، والتخلص من عبودية الرغبات ، والتعلق بالملأ الاعلى ، والشوق الى الاندماج فى النور الاقدس الذى هو على أثر ذلك كفيل بكشف ما وراء الحجب السميكة واجتياز ما بعد الحواجز الصفيقة ، واضاءة ما فى داخل البرازخ الكثيفة من أرواح علوية هبطت الى تلك الاجسام ، فغشاها الظلام ، وأحاط بها

القتام ردحا من الزمن كانت اثناءه فى شوق الى الاتصال بأصلها ، أو الاتحاد مع مصدرها فاذا تمت لها هذه البغية أصبحت جديرة بتلقى مخاطبة الحق الأعلى بقوله : « **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » بعين البصيرة النورانية ، أو اللطيفة الربانية التى ليست فى حاجة الى الحس لترى ، ولا الى الفلسفة لتهتدى ، ولا الى العلم لتسترشد ، وانما هى تنغمس فى بحار الانوار ، وتنغمز فى لجج الابهار ٠

غاية ما هنالك ان ذلك الناظر الى الفتوحات الربانية ، والمتطلع الى المعارف اللدنية ، عليه مجهودات لابد من بذلها ، وفى طريقه عقبات لا مناص من تخطيها ، وأمامه درجات لا مفر من الصعود اليها ، وأول تلك المجهودات هو التخلص من عبودية البدن ٠ وأهم تلك العقبات ، عقبة الفتنة والغرور المنتهيين دائما لصاحبهما الى الهوى فى حضيض البعد عن الفيض الالهى ، والحرمان من الفتح الصمدالى ، وليس هناك نتيجة أسبق الى القلب من الظلام ، وامتلاء الفؤاد بالقتام « **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** » ٠٠ « **ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور** » ودنيا تلك الدرجات هى درجة الطاعة الراضية ، والعبادة الصافية ومحاولة القرب والاخلاص فى الحب وايقاظ القلب ليكشف مالم يحط به اللب ، وليعلم ان النور هو الذى يبدد الظلام ، وأن البرهان يتجه من الله نحو الانام ، وأن قدسيته دليل وجود القريب والبعيد ٠٠ **أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** ٠

أما مبدأ نشأة التنسك فى النفوس فلا يعرف أحد متى وجد ، اذ أن هذه الحساسية الباطنية كانت معروفة مألوفة فى البيئات التقية الشرقية منذ أقدم العصور وأبعدها غورا ، بل نستطيع أن نجزم بأنها صنو الانسانية وتوءمها ما فى ذلك شك ولا ارتياب ، كما نجزم بأن هدف العراقة أو تلك العبادة كانت احدى ميزات الشرق على الغرب ، وأن هذا الاخير قد جلس ــ فى هذه الناحية كما جلس فى غيرها ــ من الاول مجلس التلميذ من الاستاذ ، ومن آيات ذلك أن حكيم ساموس الاول فيثاغورس قد جلب التنسك من الهند الى الاصقاع الهيلينية فى القرن الخامس قبل المسيح ٠٠

وأما مبدأ استعمال هذه الكلمة فهو ــ فيما تعى ذاكرة التاريخ ــ كان عند الهنود ، اذ نرى هذا الجانب على أتم ما يكون سطوعا ووضوحا مرتبطا بكتابهم المقدس : « الفيدا » أحكم الارتباط وأقواه ٠ وأما فى الغرب ، فاننا نشاهد للمرة الاولى معزوا الى ديونيس الاربوياجى أسقف أثينا فى القرن الاول بعد المسيح فى سفرين من المؤلفات المنسوبة اليه ، وهما « الاسماء الالهية » و « الألوهية التنسكية » ٠٠